

الجواسيس وسماسة الاراضي ، فاغتالوا كثيرين كان في مقدمتهم الضابط حلیم بسطه مدير القلم السياسي في شرطة حيفا ، وكانوا قد هاجموا في المرة الاولى واطلقوا عليه الرصاص فجرحوه ، فهاجموه بعد ذلك في رابعة النهار ، ورموه سبع عشرة رصاصة استقرت في جسده ، ولم يبرحوا المكان حتى تركوه جثة هامدة ، ثم انصرفوا دون أن يتعرض لهم احد او تعرف اسماؤهم (٥٨) .

وكان لاستشهاد الشيخ القسام وتلاميذه وللرصاصات التي اطلقوها صداها الطيب في نفوس عرب فلسطين ، فأيقظتهم من غفلتهم ، وافهمتهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة ، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها (٥٩) . وبرهن القسام على أن الكفاح المسلح والايان الوطني الصحيح هما الطريق لمقاومة المستعمر البريطاني والحركة الصهيونية ، فاستيقظت فلسطين على استشهادها . ورغم أن المعركة لم تأخذ وقتا طويلا ، لكن أثرها كان من حيث الروح لا المقدار ، ومن حيث الكيف لا الكم . فقد دل القسام الجماهير على الطريق رغم ادراكه لقوة بريطانيا ، وقائل السلطة بعدد قليل من الرجال ليحيي في النفوس روح الثورة (٦٠) . وخرج بنفسه في اول معركة ليضرب المثل للجماهير ، ويعلم الثوار كيف تكون القدوة الحسنة والنموذج الصالح . وكان ما فعله القسام ابلغ رد على سياسة زعماء فلسطين التقليديين ، فلقد ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدا ، غير آبه لجاه او زعامة ، وكانت سيرته مثلا للكفاح والنداء ، وكان المنهج الذي نهجه يخيف الزعامات ، لانه لا يكشفها فقط ، بل يهددها بفقدان زعامتها ، لهذا فان الزعامات حرصت على عدم الاستفادة من الجو المتوتر الذي تولد عن بدء المقاومة ، كما ان الزعماء لم يحضروا جنازة القسام ، على الرغم من أن أكرم زعيتر — من رجال حزب الاستقلال — دعا الزعماء الى الاشتراك في تشييع الجنازة ، وكانت البرقيات التي ارسلوها باهتة باردة ، ولم يكتفوا بهذا ، بل أنهم اجتمعوا بالندوب السامي قبل ان يمضي اسبوع على وفاة القسام ، وقدموا له مذكرة حددوا فيها مطالب البلاد واعطوه مهلة شهر للاجابة عليها (٦١) .

وبذلك يكون الشيخ القسام اول من عمل عملا مركزا للثورة ، وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني في فلسطين ، وترك عشرات من رجاله يقومون بالدور البارز في الثورة التي اندلعت في فلسطين خلال الاضراب الذي بدأ في فلسطين في النصف الثاني من ابريل ١٩٣٦ (٦٢) . والذي كان هذا الحادث من حوافرها النفسية القوية (٦٣) . حتى أن بعض المراجع العربية تعتبر أن ثورة ١٩٣٦ قد بدأت يوم خرجت حيفا بشيوخها وشبابها ونسائها تضطرب في موجة حزن ، حاملة اعلامها وراياتها مودعة للشيخ القسام وصحبه الشهداء (٦٤) . واعتبر مصدر آخر هذا الحدث مقدمة لثورة ١٩٣٦ (٦٥) .

وقد أزعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته ، فقد استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها ، وحظر عليهم كتابة شيء عن القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم ، لكن السلطة سرعان ما رأت روح القسام تنتشر في الشعب كله خلال الاضراب الكبير الذي حدث بعد استشهاد القسام بعدة أشهر والذي دام ستة أشهر كاملة .

وقد تابع رجال القسام رسالة قائدهم حتى قبيل اضطرابات ١٩٣٦ ، ففي اليوم الثاني من استشهاد الشيخ القسام خرج الشيخ فرحان السعدي احد مريديه مع جماعة من الانصار الى جبال صفا ورايط هناك (٦٦) . وفي الخامس عشر من ابريل ١٩٣٦ قامت جماعة من اخوان القسام بقيادة الشيخ فرحان السعدي والسيد محمود ديراي بالهجوم المسلح على السيارات الصهيونية بطريق نابلس — طولكرم ، وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين ، واختفوا عن الانظار ليعيدوا الكرة من جديد ، واخذت الجماهير تفكر في الثورة المسلحة ، وبدأ اخوان القسام من العلماء ، يحرضون الشعب على القتال ، وكان للعالم الشيخ